٢ ـ من أدب الزراعة

للأستاذ محمد محمود جلال

تمر اليوم بالحقل فتقر عيناك ببساط سندسي وقد نبت البرسيم فحلّى عاطل الأرض بعد أن كان جدباً ميتاً يوم جئ به من المخزن فبذر في ظل الذرة نامية السوق ناضرة اللون فتتمثل بقول الصانع الحكيم « يخرج الحيّ من الميت » . . . ولكل نبت من شعرات البساط مهما دق روح وخصائص للنمو والتزاوج والأزهار والأثمار

يروقك المنظر بعد أن انجلى عنه ما كان يشوبه منذ أيام من سوق يبست فثقلت على النفس، وهانت على الزمن، فناداها أجلها فانتهت أشبه ما تكون بعهد الظلم أو بالظلام عفّ ضياء العدل أو ضوء الشمس آثاره

حيذا الحدود تضع لكل مخلوق دوراً، وحبذا التزامها، وما أنكر الطغيان !

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أخذ من الدنيا فوق حاجته أخذ حتفه وهو لا يشعر »

ولكن الخير المحض لا وجود له في الدنيا، وكذلك لم يخل الله مخلوقاً من نفع، فذاك اليبس في السوق، وتلك الضآلة في منظر الذرة حين تجف، إنما تحمل مادة الحياة وغذاء الغالبية العظمى تلك الأمطار[1] الثقلة أشبه بثمار التجارب وعميق الفكر، لا تنضج إلا في استواء العمر وأواخر الحياة، فيكثر الأطراق والأغضاء اتساعاً للناس على علم من الحياة، ورحمة بالعاني والخاطئ، وتحبب إلى النفس العزلة والأنزواء، فيسمى إلى أهل الرأي والتجربة رائدو الحكمة وطالبو العلم كما يسعى الناس إلى الثمون من تلك الثمار الجافة حيثما وجدت

وفي مظاهر الهدوء والأطراق سمة الأتعاظ والبعد عن الزهو والصلف، وهي مظاهر لا تلقاها إلا حيث تلقى الفضل والنبل، بل هي سياجهما وشارتهما كما يقول المرحوم شوقي بك :

ومن لم يجمّل فضله بتواضع يَبِنْ فضله عنه ويعطل من الفخر

على أن هذا البساط الذي يأخذ بالأبصار، ويضفي اليوم على الوادي ثوباً قشيباً حبيباً، إنما نبت في كنف غيره، وإنما كفله وأخذ بيده سواه

ففي دفء « الذرة » يوم كانت حلية الأرض تغذى، وفي حمى سوقها التي تزدري اليوم ازدهر . فكانت له الأب البار، أو الوصيّ الأمين، حتى تم الدور فتخلت ناعمة لسعيها راضية . قدمت الخير واطمأنت، وما خلفته إلا حين رأت فيه القدرة على بدء دوره

معانٍ للتعاون وربط أدوار الحياة ببعضها . (وفي الأرض آيات للموقنين) . ومنذ آلاف السنين تمر قوافل الأجيال منا في كنف الوادي الأمين بتلك العظات، وتتصفح أخراها تاريخ أولاها، وتتبين العز يكلل جبين القوم متحداً، وسيف الذل مسلطاً على رقابه متفرقاً :

عظة قومي بها أولى وإن بعد العهد فهل يعتبرون

أجل، لا يعتبرون ولو تكررت العظة في كل موسم ! !

فاذا أشحنا عن منظر لا يروق، ردنا إليه الذكر حين ندرك يده فيما يروق، وفاء للثمار، وعرفاناً للجميل :

ومن شكر المناجم محسنات إذا التبر انجلى شكر الترابا

* * *

(١) الأمطار جمع مطر بضم الميم وسكون الطاء سنبول الذرة (كوز)

الكون) هذا النظام وهذا التنسيق، بل إن هناك قوة خارقة منسقة منظمة، لا يحيط بها عقلنا، بل هي تحيط بنا وبهذا الوجود من كل نواحيه . أوجدت هذا الكون الأعظم وجعلته يسير ضمن نواميس ثابتة . ومهمتنا نحن البشر أن نزيد معارفنا عن هذه النواميس ونبحث في أصولها، وكلما زدنا معرفة بها زدنا اعتقاداً بقدرة الله الخارقة المنظمة، وإيماناً بعظمته وقوة إبداعه، وظهر لنا بجلاء مقام الإنسان في هذا الكون الذي لم يخلق باطلاً

هذا الأعتقاد، وذاك الايمان اذا رسخا عن طريق الدرس والبحث فانهما يسموان بصاحبهما الى عالم أسمى من عالمنا، وفي هذا لذة روحية هي أسمى أنواع الملذات . . .

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك . . . »

قدري حافظ طوقان

والحياة مزيج ، فهنا تلقى بقعة من منضور النبت حالية ، وهناك تلقى قطعة من بهجة الأرض عاطلة ، بل قد ينفر سمعك من الأسم الذى يطلقه عليها «أدب الزراعة» فهى تسمى فى العرف بوراً

هذا (البوار) مقدمة الخطبة ، وهذه « البائرة » كثيرة الخاطبين فمَطلها اليوم مؤقت ، وخلوها قصير الأمد « وبورها » فأل الخير الدافق فى المستقبل القريب

هذه القطع الخالية هى المعدّة لزراعة القطن فى الموسم القادم ، فهى اليوم رهن التهيىء والأعداد

(بورها) كيوم الجمعة عندنا ، تستجم فيه العافية ، وكيوم الأحد عند غيرنا ، جعلوه للراحة والتسلية ، فاذا أقبل يوم السبت أو الأثنين فنشاط يفوق نشاط الأيام الأخرى

عاطلها اليوم كذوى النفع والخير المستخفين ، أو الذين تقصيهم الأوضاع السقيمة وطغيان المتحكمين فى البيئة كما قسمت الأرض لمحض فكرة الزارع فى الكسب — حتى يأتى عبد الله ، فيقيم العوج ، ويقصى الضار ، ويظهر الحق ، ولكل أجل كتاب

هذه القطع (البور) غمرها ماء النيل رجاء إخصابها ، ولتجدن من بينها اليوم ما يأنس بالمحراث أنس الطروس بالأقلام ، تسيل علماً وحكمةً وأدباً مُرَوِّحاً ، حتى إذا نظرت اليها نظرت الى سطور خير فى أسرع الصحف تلبية وانتاجاً

ولقد شاد بتلك الروعة الضابط الميوف (محمد توفيق على) حين اضطر الى ترك الصفوف وخدمة الجيش ، وعكف فى مزرعته يغذى ميدانى الأدب والزراعة فقال :

وياسطوراً بمحراثى أدبجها
لا يستقل بها القرطاس والقلم

أما « المحراث » الذى يشق لنا الأرض اليوم ليفتح سيل الخير غداً فقد جاءنا بأكثر من احتلال واحد

فاذا ذكرت « قصر النيل » ومآله ، « وقشلاق العباسية » وغاره ، فانك واجد فى أعماق الريف وأينما سرت فوق التربة المصرية « فوردسن » و« لانس » و« هوفر » من معادن غريبة عنا ، وبائعين لا يذكرون انا من حسنة الاسداد « القسط » ، فاذا أردنا للمحراث حركة ، فلابد من « البنزين » من أمريكا ، « والقار » من رومانيا ، والزيوت من أصقاع نائية

وأما تلك الأوراق التى يوقعها الزارع . ففداء للمحاكم المختلطة ، وجن يحمل المال من مصر الى أوربا ، وآفة من آفات الأهال قضت على إحدى صناعات الزراعة ، وهى تربية الماشية ، ودهورت أسعار الحبوب والزروع من فول وشعير وعلف ، كانت تحمل من أرضنا الى موانينا ، وتؤدى الثمن فى المنيا والخرطوم ، فلا تعدو خيراته الأسكندرية ، ثم يعود فى أبواب أخرى الى المدينتين وسواهما من مدن القطر المصرى السودانى وبلاده وقراه !

محمد محمود مهدول
المحامى

سـاهم
فى بناء مجـد بلادك الاقتصادى
بالحصول على
أسـهم
شركة مصر للغزل والنسج
الاكتتاب ببنك مصر وفروعه
لغاية ٣١ الشهر الحالى